المفهوم الصحيح للعبادة ومظاهر إنحرافه وضعفه

عبد العزيز الجليل

المفهوم الصحيح للعبادة ومظاهر انحرافه وضعفه

الشيخ: عبد العزيز بن ناصر الجليل

يواصل الأخ الكاتب وفقه الله وقفاته الإيمانية التربوية عند بعض الآيات القرآنية في دراساته (وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم)، وهذه وقفته العاشرة عند آية { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } حيث تطرق لمعاني هذه الآية الكريمة وما ورد فيها من أحاديث، مع لمحات علمية وتوجيهات دعوية، سنختار بعضاً منها؛ لما انطوت عليه من دراسة وتحقيق وإيضاح لمفاهيم انحرف معناها في حس الكثير من المسلمين .

- البيان -

ما العبادة ؟

اختلفت أقوال العلماء في مفهوم العبادة وتعريفها، وهذا الاختلاف هو من اختلاف التنوع لا التضاد، أي : إن هذه التعريفات يكمل بعضها بعضاً، والإلمام بكل هذه الأقوال ينتج عنه المفهوم الصحيح للعبادة، ومن هذه الأقوال : قول ابن القيم (رحمه الله تعالى) : (أصل العبادة : محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه، وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها : فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه) (1) .

وقوله في موطن آخر : (العبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع) (2) .

---

(1) مدارج السالكين، لابن القيم، 91/1 .

(2) مدارج السالكين، لابن القيم، 77/1 .

ويعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) فيقول : (العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة) (3) .

وعلى ضوء ذلك : لا يكون العبد متحققاً بوصف العبودية إلا بأصلين عظيمين :

1- الإخلاص لله (جل وعلا) .

2- متابعة الرسول .

ومما سبق بيانه من النقولات وغيرها يتضح لنا جليّاً معنى العبادة الحقة التي أمرنا الله (عز وجل) أن نتعبد له بها، ويمكن تلخيص هذا المعنى العظيم وتلك الحقيقة الضخمة فيما يلي :

* العبادة الحقة تعني تمام المحبة مع تمام الخضوع والتذلل لله (عز وجل) الذي يعني طاعته (سبحانه) والانقياد لأمره، ومحبة ما يحب، وبغض ما يكره، واتباع رسوله -صلى الله عليه وسلم- فيما أمر ونهى وما سن وما شرع، من غير زيادة ولا نقصان؛ وإلا .. فما قيمة محبة وخضوع لايثمران طاعة واتباعاً وقبولاً والتزاماً ؟

* العبادة الحقة تفرض على العبد أن يكون في كل أوقاته وتحركاته وسكناته مصبوغاً بصبغة العبودية، لا يخرج عنها في أي لحظة من اللحظات .

* ومن صرف شيئاً من العبادة لغير الله (تعالى) فهو مشرك تجب البراءة منه ومن شركه، ولا تصح العبادة إلا بهذه البراءة .

بعض مظاهر الضعف والانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها :

بعد أن اتضح لنا مفهوم العبادة الحقة كما عرضناها من فهم العلماء الربانيين للكتاب والسنة : فلابد بعد ذلك من عرض هذه المفاهيم العظيمة والحقائق الضخمة على واقعنا نحن المسلمين في هذه الأزمنة المتأخرة، وهل هذا الفهم الصحيح للعبادة هو السائد اليوم بين المسلمين ؟ أم أن هذا الفهم قد اعتراه من الضعف والانحراف الشيء الكثير ؟

---

(3) العبودية لابن تيمية، ص4، ت : بشير عيون .

إن المتأمل في حال المسلمين الأليم، والغربة التي يعيشها أهل الإسلام اليوم : ليجد كثيراً من المفاهيم العقدية قد انحرفت عند كثير من عامة المسلمين إلا من رحم الله (عز وجل)، فهناك انحراف في معنى التوحيد والعبادة، وانحراف في عقيدة اليوم الآخر، وانحراف في عقيدة القضاء والقدر، وانحراف .. وانحراف .. ولقد ساهم في هذه الانحرافات غزو أعداء المسلمين لديار المسلمين بثقافاتهم الكافرة وأفكارهم المنحرفة، وقابل هذا الغزو من الأفكار جهلٌ عند كثير من الأجيال المسلمة بدينها وعقيدتها، وعجز عند أكثر علماء الأمة عن تعليم الناس والوقوف في وجه هذا الغزو، (فوافق الغزو قلباً خالياً فتمكنا) .

من هنا سيتوجه التركيز على بعض مظاهر الانحراف والضعف في مفهوم العبادة، فمن ذلك ما يلي :

1- الانحراف في تطبيق شرطي العبادة :

من مظاهر الانحراف في العبادة فهماً وتطبيقاً ما هو منتشر بين أهل البدع والخرافة في القديم والحديث من ترك لأحد شرطي العبادة أو كليهما واللذين لا تصح العبادة إلا بهما، ألا وهما : الإخلاص والمتابعة ... المراد هنا : إيضاح الانحراف الذي يترتب على ترك هذين الشرطين أو أحدهما؛ فترك الإخلاص في العبادة نتج عنه صرف العبادة التي هي لله وحده إلى غيره من الخلق ولو كانوا أنبياء أو ملائكة أو أولياء وهذا صرف للعبادة عن مستحقها، وحجتهم الداحضة عند ربهم : أنهم يؤمنون بأن الله الخالق الرازق بيده الضر والنفع، ولكنهم يتوسلون بالصالحين ليقربوهم إلى الله زلفى؛ وهذا هو الشرك الأكبر الذي من أجله أنزلت الكتب وأرسلت الرسل، فترى هؤلاء يصرفون العبادة بأنواعها المختلفة من ذبح، ونذر، وخوف، ورغبة ... وغير ذلك من أصناف العبادة إلى غير الله (عز وجل)، وهذا من أشد مظاهر الانحراف في العبادة؛ لأنه شرك أكبر يضاد الإخلاص لله (عز وجل)، الذي هو شرط من شروط كلمة التوحيد وقبول العبادة .. ومحل الكلام عن هذا الشرك وأنواعه مبسوط في كتب التوحيد والعقائد[4] (4) .

---

(4) مثل : كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله)، وشروحه المعروفة، ومن أشهرها : (فتح المجيد) و (تيسير العزيز الحميد) .

أما ترك الشرط الثاني لصحة العبادة (وهو المتابعة) فينتج عنه انحرافات كثيرة في العبادة وتطبيقاتها، حيث ظهرت ألوان وصور من العبادات التي لم يأذن بها الله (عز وجل)، ولم يشرعها الرسول لأمته، وبخاصة بين المتصوفة الذين يعطون لمشائخهم حق التشريع، ويعتبرون أقوالهم وأفعالهم مصدراً من مصادر الاستدلال، فظهرت بذلك هيئات وصور متعددة للعبادة والأوراد والأذكار، كلها مبتدعة، سواء أكان ذلك في كيفيتها، أو كمها، أو هيئتها، أو طريقة أدائها، أو زمانها، أو مكانها، وهذه كلها مردودة على أصحابها، لأنها تشريع لم يأذن به الله، قال (تعالى) : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الشورى : 21]، ولقوله : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) (5) .

2- الانحراف في مفهوم العبادة :

وهو النظر إلى العبادة على أنها أداء للشعائر التعبدية من : صلاة، وصيام، وحج، وذبح، وقراءة قرآن ... فحسب، وأن ما سوى ذلك من معاملات، وأخلاقيات، ومباحات .. وغيرها، كل ذلك لايدخل في العبادة .

نعم إن هذا المفهوم هو السائد عند بعض المسلمين، سواء أقالوه بلسان مقالهم أم بلسان حالهم وأعمالهم، ولا أدل على ذلك من أننا قد نجد ذاك العبد المصلي، الصائم، القارئ للقرآن، بعد فراغه من هذه الشعائر التعبدية لا يتورع أن يغشّ، أو يرابي، أو يظلم، أو يملأ بيته من آلات اللهو ووسائل الإفساد ما الله به عليم، وكذلك قد نرى المرأة المصلية الصائمة لا تتورع عن التصرف في نفسها بما يخالف الشرع، من سفور، أو زينة محرمة، أو اختلاط .. أو غيره . وإذا نصح مثل هؤلاء الناس، قالوا : إنهم من المصلين العابدين، وقد انتهى وقت العبادة ! وهكذا تنحرف الغايات، وتنشأ اللوثات، وتفسد النيات، وذلك كمن يفصل أمر تعليمه وتعليم أولاده عن غاية العبادة لله (عز وجل)، ويربط ذلك بالشهادة والمال والوظيفة، بل يستخدم أي وسيلة توصله إلى ذلك .

إن العبادة بهذا المفهوم المنحرف تجعل المسلم في انفصال وانفصام بين حياته في مسجده وخارج مسجده، لأنه لو كان مفهوم العبادة التي يريدها الله (عز

---

(5) رواه البخاري من حديث عائشة (رضي الله عنها (، ك/ الصلح، ح/ 2697، ومسلم، ك/ الأقضية، ح/ 1343 .

وجل) كما فهمها هذا الصنف من الناس لكانت عبثاً، ولبقي أكثر الأوقات غير معمور بعبادة الله (عز وجل)، وهذا لا يرضاه الباري (جل وعلا)؛ ذلك لأن أوقات الصلوات لا تتعدى ساعتين أو ثلاث في اليوم والليلة، فماذا يكون شأن الساعات الباقية ؟ هل تنفق في غير عبادة ؟ ! كلا .. فإن الله (سبحانه) لا يرضى لعباده هذه الحال .

إذن : فالواجب على كل مسلم أن يعلم أنه ما خلق إلا للعبادة، وأن وقته يجب أن يكون في عبادة؛ سواء ما كان منه في الشعائر التعبدية، أو ما كان منه في المعاملات، أو ما كان منه في المباحات، كل ذلك يجب أن يمارسه العبد وشعور العبادة لله (عز وجل) يصاحبه، فيراقب ربه في كل أعماله، وينوي بها التقرب إليه (عز وجل) والاستعانة بها على طاعته .

إن هذا الشعور وهذه النية تجعل العبد في كل أعماله حتى في مباحاته ولذاته عبداً لله، مسلماً وجهه لربه (عز وجل)(6) ، { قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ }[الأنعام : 162، 163] .

3- الانحراف في التطبيق :

وقد ترتب على ذلك الانحراف في مفهوم العبادة انحراف آخر في تطبيق العبادة، فحتى الشعائر التعبدية التي حُصِرت العبادة فيها بحسب، هي الأخرى نالها ما نالها من الضعف والميل بها عن حقيقتها وغايتها، وهذه نتيجة متوقعة وبدهية معروفة؛ فالانحراف في الفهم لابد أن ينتج عنه انحراف في التطبيق، ويوضح الأستاذ محمد قطب (وفقه الله) هذا الانحراف، فيقول : (حين صار المطلوب كله هو أداء الشعيرة، وانحصرت (العبادة) كلها في هذا الأمر، كان حريّاً بهذا اللون من العبادة أن ينحسر أكثر فأكثر، حتى يصبح المطلوب هو أداء الشعيرة بأي صورة كانت .. ولو كان أداءً آليا بغير روح، أو أداء تقليدياً يحركه الحرص على التقاليد أكثر مما يحركه الدافع إلى عبادة الله .

وتلك هي الصورة التي انتهت إليها العبادة في الجيل الذي شهد الانهيار) .

---

(6) وقد تحدث الأستاذ محمد قطب حول هذا الموضوع حديثا مستفيضاً وفق فيه، عند حديثه عن مفهوم العبادة، انظر كتابه (مفاهيم ينبغي أن تصحح) .

4- الانحراف في مصدر التلقي :

ترتب على الانحراف السابق في مفهوم العبادة انحراف أشد خطراً وأسوأ أثراً، حيث كان الانحراف السابق ذكره منحصراً على مستوى الفرد، بينما هذا الانحراف الذي نحن بصدده يتمثل في النظم التي تحكم في أكثر بلدان المسلمين اليوم، والتي يسعى أربابها إلى عزل الدين عن الحياة وتوجيهها وتنظيمها، وحصره بين جدران المسجد وأداء الشعائر التعبدية، ولسان مقالهم أو حالهم يردد تلك المقولة الجاهلية، والتي قالها أصحاب مدين لنبيهم شعيب (عليه الصلاة والسلام) ويقولها العلمانيون في زماننا : ما للدين وحجاب المرأة وعملها ؟ ما للدين والسياسة وموالاة الكفار ومحبتهم ؟ ما للدين والاقتصاد ؟ ما للدين والإعلام والتعليم ؟ ... !! إلخ، الدين : أن تعبد الله في المسجد، وتقرأ القرآن، وتذكر الله ... هكذا يزعمون ! ! أما الحياة فلها نظمها التي تتناسب مع تطورها .. إلى آخر هذا الهذيان والانحراف والفجور .

إن هذا الفهم الأعوج هو ما قاله أهل مدين لنبيهم شعيب بعد أن دعاهم إلى التوحيد وترك البخس والنقص في المكيال والميزان، قال الله (عز وجل) : { قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إنَّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [هود : 87] . إنهم يقولون : يا شعيب : ما دخل عبادتك وصلاتك في حياتنا الاقتصادية، وفي اتباعنا لآبائنا وطاعتهم فيما كانوا يعبدون ..

سبحان الله ! ما أشبه قلوبهم بقلوب الجاهلين في زماننا هذا، وما أشبه مقولتهم بمقولة العلمانيين المنافقين(7) .

والحاصل مما سبق : إذا حصرت العبادة في الشعائر التعبدية فحسب، فما معنى قوله (تعالى) : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ } [التوبة : 31]، وما معنى قوله (تعالى) : { وَإنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [الأنعام : 121]، وقد علق العلامة الشنقيطي (رحمه الله) على هذه الآية، فيقول :(فهي فتوى

---

(7) تحدث الأستاذ سيد قطب عن قوله (تعالى) : {أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ}الآية حديثاً قيماً، فضح فيه منطلقات العلمانيين من الدين وتعاليمه ومحاولاتهم الدائبة لفصل الدين عن الحياة بدعاوى ما أنزل الله بها من سلطان، انظر الظلال (آية 87 من سورة هود) .

سماوية من الخالق (جل وعلا) صرح فيها بأن متبع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله) [8] .

إذن : فإن من أخص خصائص العبادة : الطاعة، والاتباع، والخضوع، والانقياد، فكما أن العبادة تأتي بمعنى الدعاء والنسك، فهي تأتي أيضاً بمعنى الطاعة والاتباع، ولكن الجاهلين أو المتجاهلين يريدون حصرها فقط في الشعائر التعبدية والعبادات الخاصة، ثم لا دخل بعد ذلك للعبادة في شؤون الحياة وتسيير دفتها .

وإن الذين يرون هذا الفصل المشين والفصام النكد بين الدين والحياة على قسمين :

* إما أن يكونوا جهلة بحقيقة الدين وحقيقة العبادة في الإسلام، إذ لم يكن لهم حظ من العلم الشرعي ينير بصائرهم، وإنما غاية ما عندهم ثقافات مشوهة من الغرب أوالشرق تسربت إلى قلوبهم على حين غفلة وخواء، فتمكنت منها، وهؤلاء وأمثالهم من الذين انحرفوا بمفهوم العبادة عن معناها الصحيح بسبب جهلهم، وقد نرى بعضهم من المصلين، الصائمين، التالين للقرآن الكريم !

وعلاج هذا الصنف من الناس يكون بالعلم الشرعي، والرفق بهم حتى يفقهوا هذا الدين بمعناه الصحيح .

* والأخطر من أولئك هم الذين يفهمون حقيقة العبادة وحقيقة دين الإسلام، ولكنهم يستكبرون عن الانقياد لهذا الفهم، وينطلقون بخبث وغرض سيء لإثارة الشبهات، وصرف المسلمين عن دينهم، وتشويه هذه المفاهيم في نفوسهم، وهؤلاء إن صلوا أو قاموا ببعض الشعائر فهو نفاق وزندقة . والحذر من هؤلاء يجب أن يكون على أشده، كما أن فضح أفكارهم وخططهم هو المتعين، فهم من المنافقين الذين جاء الأمر الإلهي بمجاهدتهم، قال (تعالى) : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التحريم : 9] .

5- الانحراف في المفهوم والتطبيق :

---

[8] أضواء البيان، 170/7 .

ومن مظاهر الانحراف في مفهوم العبادة وتطبيقها ما عرف عن بعض غلاة المتصوفة وزنادقتهم من أن أداء العبادات والطاعات مرتبط بحصول اليقين المطلق هكذا زعموا فإذا وصل العبد إلى هذا المستوى سقط عنه التكليف ولم يعد في حاجة إلى العبادة التي هي من منازل العامة !، أما الخاصة، ومن يسمونهم بالأبدال والأقطاب : فقد بلغوا درجة اليقين التي ترفع عنهم التكاليف والعبادات (نعوذ بالله من هذه الحال)، ونبرأ إلى الله (عز وجل) من أهل الزندقة والإلحاد(9) .

هذا ... ومن شطحات الصوفية في مفهوم العبادة أيضاً : المقالة المشهورة عن بعضهم من أنهم (لا يعبدون الله خوفاً من ناره، ولاطمعاً في جنته، وإنما حبّاً له وشوقاً إليه) .

وواضح ما في هذا الكلام من تكلف وانحراف عن طريق الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وسؤالهم الله (عز وجل) جنته وتعوذهم به من النار، يقول شيخ الإسلام (رحمه الله تعالى) في معرض رده على هذه المقالة : (كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته، قال : إني أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال : (حولها ندندن) (10) (11) .

وقال من قال من السلف : (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري (أي خارجي)؛ ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد) .

إذن : فالعبادة الحقة هي التي تجمع بين المحبة والخوف والرجاء والذلة والخضوع، كماسبق ذلك في تعريف العبادة وحقيقتها (12).

---

(9) وقد فضح الإمام ابن القيم هؤلاء المتصوفة الزنادقة في (مدارج السالكين)، 103/1، 104 .

(10) ابن ماجة في الإقامة (910)، والدعاء (3847)، وأبو داود في الصلاة (792)، وفي صحيح ابن ماجة (748) .

(11) تفسير { لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنبياء : 87] لابن تيمية، تحقيق : عبد العلي حامد، ص13 .

(12) ((مجلة البيان . العدد [104] صـ 20 ربيع الآخر 1417 - سبتمبر 1996))